

التأثيرات العثمانية في المجتمع الجزائري

1830-1520

الأستاذة لطرش حنان

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قسنطينة

بداية وقبل الحديث عن الحياة الاجتماعية وجب توضيح الفهم الحقيقي للتاريخ ولا يوجد مثل ابن خلدون في تصوره وعرضه في حديثه عن صناعة التاريخ حيث قال "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التقلبات للبشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعة الأحوال"¹

غير أنه رغم التصور الخلدوني الدقيق للتاريخ فان مدرسة الحوليات في النصف الأول من القرن 20 نبغت في تطبيق منهج جديد قريب من التصور الخلدوني وقد أثرت هذه المنهجية في الكتابات التاريخية عند العرب في عصرنا الحاضر؛ فالتاريخ الجديد اعتمد أنواع جديدة من المصادر مثل دفاتر العدول والتاريخ الشفوي والتراث المادي وهذا أثر على نوعية التساؤلات المطروحة ونوعية القضايا المتناولة ولم يعد تاريخ الجنرالات والشخصيات هو الذي يهم المؤرخين بل أقحم تاريخ جديد يهم كل الشرائح الاجتماعية ولم تعد العناية بالمدينة وأسوارها وقصورها بل دخلت البحث بيوت الفقراء ونمط عيشهم فالناس هم من يصنعون التاريخ مثلما عبر عن ذلك كارل

1 - عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط9، دار الكتب العلمية، بيروت،

2003، ص35

ماركس" بأن التاريخ هو كل ما شمل المتخيل الاجتماعي"، لذلك وجب على المؤرخين دفع الكتابة التاريخية الى الأمام للغوص في أعماق تاريخ المجتمعات. ويعتبر العهد العثماني في تاريخ الجزائر الحديث، فترة مهمة وحاسمة وحاسمة فهي بغض النظر عن المدة الزمنية التي استغرقتها والتي تزيد عن تزيد عن ثلاثة قرون (1520-1830) فإنها تتميز بعدة اعتبارات منها: أنها فترة تعرضت الجزائر في مطلعها للغزو الأسباني، وعرفت في نهايتها الاحتلال الفرنسي كما عاشت أثناءها مرحلة صراع مستميت واجهت فيه اعتداءات الدول الأوروبية وتحرشاتها، زيادة عن كون الفترة العثمانية تعتبر بمثابة المعبر الزمني الذي حافظ على قيم الجزائر الحضارية وتراثها الإسلامي العربي.

ودأب الكتاب الفرنسيون على عدم التنويه والإشادة بماضي الجزائر ماعدا العهد الروماني، وفترة الاحتلال الفرنسي أما الفترة العثمانية فتعتبر في نظرهم من قبيل القضايا الجانبية والموضوعات الهامشية، والحلقة المظلمة، بحيث ظل الإهتمام والتركيز منصب على مدينة الجزائر وما يهم الأوروبيين من نشاطها مثل الاحتكارات التجارية ومشاكل القرصنة المتعلقة بفداء الأسرى ودفع الإتاوات والهدايا من طرف الدول الأوروبية، وما انجر عن هذا النشاط من أعمال عدائية وغارات، وهجمات انتقامية التي شنّها الأوروبيون على السواحل الجزائرية.

وإذا تجاوزت هذه الكتابات الفرنسية مدينة الجزائر- وقلما تفعل ذلك - فلا تبرز أوضاع البلاد إلا من خلال الحملات الانتقامية للحكام الأتراك، والاعتداءات المتكررة لرجال البايك والفوضى والاضطرابات التي كانت تعيشها المجموعات العشائرية، وهذا ما تؤكد لنا موضوعات العديد من الكتب المتداولة وتدل عليه بصفة خاصة العناوين التي تحملها بعض الكتب مثل: "كتاب بلاد البربر وقراصنتها" للأب دان و"تاريخ مدينة الجزائر

وقرصنة الأتراك في البحر المتوسط" لدوتاسي وكتاب "حياة وأوضاع العبيد المسيحيين بإقليم الجزائر" لمارتن وكتاب "الجزائر أثناء مائة سنة من الجهود لإطلاق سراح أسرى المسيحيين" للأب أوس بالإضافة إلى مذكرات الرحالة وتقارير القناصل، وتقاييد رجال الدين وتسجيلات التجار، بعضها يعود إلى القرن 16 م مثل: كتب هايدو (häedo)، الأب دان (P.Dan)، داير (Dapper)، دافيتي (Davity)، وداراندا (Dàrande)، فاي (Fay)، غاسبار (Gaspart)، وسانسون (Sanson)، ودابريل (Dabbville)، دانكور (Dancour)، وغيرها كثير.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الكتابات غير متكاملة، ينقصها الترابط والتنسيق وهذا ناتج عن كون الكتاب الأوروبيون كانوا يختلفون عن بعضهم من حيث درجة التكوين الثقافي، فممنهم القادة العسكريون والحكام الإداريون، والأسرى والرحالة والتجار، الذين اهتموا بالكتابة عن الجزائر العثمانية تحت دافع الهواية الشخصية لتسجيل الانطباعات ووصف الأحداث والتعليق عليها، وما يحسب على هذه الكتابات أيضا أنها لم تخرج عن النطاق السياسي والعسكري مهملة في ذات الوقت وبصورة ملحوظة الحياة الاجتماعية والثقافية والحضارية للجزائر، متعمدة إقصاء المظاهر الحضارية والمكتسبات الثقافية للمجتمع الجزائري في الفترة العثمانية، إذ يكتنفها النسيان ويستبد بها الغموض.

فالمساهمة التاريخية الفرنسية، أو ما يصطلح عليه بالمدرسة الفرنسية تظل قاصرة كونها تعتمد اعتمادا تاما على المصادر الغربية والأرشفات الأوروبية، مع تجاهل صريح للمصادر العربية والتركية، كما أنها تعتبر تاريخ الجزائر العثمانية بكامل مظاهره السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والحضارية من الموضوعات الهامشية وإسهاماتها وضعت من أجل هدف سياسي استعماري بحث، إذ حاولت من خلال هذه

الإسهامات تبرير الاستعمار الفرنسي في الجزائر، بحيث أصبح ارتباط الجزائر بالدولة العثمانية بمثابة العامل الذي حال دون اكتساب الجزائر مقومات الدولة القومية، وعاق تطور النظم الاجتماعية والاقتصادية واثبات أن الحكم التركي قائم على الاستبداد والعدوان، في حين أن الحضور الفرنسي اقرب إلى العمل الحضاري منه إلى التدخل الاستعماري.

وبفعل هذه النظرة التي لا تعطي للفترة العثمانية مكانها اللائق بها من تاريخ الجزائر، ظل تاريخ الجزائر العثماني أشبه شيء بفترة ما قبل التاريخ حسب تعبير "جاك بيرك"، إن لم نقل بأنها كانت تشكل الحلقة المفقودة في تاريخ الجزائر.

أما المؤرخون الجزائريون فقد اعتبروا الفترة العثمانية مجرد خاتمة لأبحاثهم المتعلقة بالقرون الوسطى، أو تمهيدا لدراساتهم المتصلة بفترة الاحتلال وما قد يؤخذ اليوم على المدرسة التاريخية الجزائرية، كونها اعتمدت في أسلوبها على العاطفة وهي أقل إنتاج وشمولا ويغلب عليها الطابع السياسي. ومن الأقلام الجزائرية التي واكبت التأليف التاريخي بالجزائر العثمانية، نذكر منهم كتاب الشيخ مبارك الميلي "تاريخ الجزائر في القديم والحديث" وكتاب الشيخ أحمد توفيق المدني "كتاب الجزائر" وكتاب عبد الرحمان الجيلالي "تاريخ الجزائر العام" في أربعة مجلدات وغيرها.

وقد نجحت هذه المدرسة إلى حدّ ما في سد الفراغات وملء الفجوات التي ظل يشكو منها التاريخ الجزائري العثماني، ومما يمكن ملاحظته في هذا المجال، ولادة إسهامات جديدة من طرف خريجو الجامعات من الجزائريين وغيرهم تتصف باحترام المنهج التاريخي والتقيد بطرق البحث الحديثة، مع عدم اتخاذ موقف محدد قبل التوصل إلى نتائج معينة وهذا ما يجعل منها مساهمة جدية لإعادة تقييم وصياغة تاريخ الجزائر العثمانية بكافة مظاهره ضمن إطار مدرسة موضوعية منهجية.

ومما لاشك فيه أن النظرة الموضوعية تفرض علينا أن نقر بأن فهم تاريخ الجزائر الحديث فهما، متماشيا مع الواقع والحقيقة، لا يتأتى إلا بدراسة الفترة العثمانية دراسة تعتمد على المصادر الأساسية، وتستند إلى الوثائق الأصلية التي تشكل المادة الخام والعمود الفقري لأي بناء تاريخي.

ومما تجدر الإشارة إليه أن القارئ يلحظ أن الاهتمام منصب حول حياة الحكام الأتراك وكبار المسؤولين وعلاقاتهم الدبلوماسية والسياسية فيخيل للقارئ أن السكان المحليون قد خرجوا من تلك الحقبة الزمنية، أو تم إقصائهم من المشاركة التاريخية بكافة مظاهرها (الاجتماعية والثقافية والسياسية والإقتصادية)، كما أن هذه الإسهامات التاريخية قد أغفلت بعث تصور تاريخي للبيئة الاجتماعية للسكان المحليين في إطارها العربي، وبعدها الإسلامي بعيدا عن الأحداث السياسية والعسكرية والصراعات العشائرية، كما أنها غابت خصوصية المجتمع الجزائري المتمثلة في طريقة العيش واللباس والتعامل والعادات والتقاليد والفن الشعبي والنمط العمراني...وما لكل هذه الخصوصيات من أهمية في بناء الشخصية القومية.

وعليه ارتأينا إثارة هذا الجانب وتسلط الضوء على واقع الحياة الاجتماعية بسلبياته وإيجابياته وذلك من خلال النقاط التالية:

كيف هي البنية الاجتماعية للمجتمع الجزائري؟ وكيف كانت العلاقة بين العثمانيين والأهالي وفيما تمثلت مظاهر التأثيرات العثمانية على المجتمع الجزائري؟

وذلك حتى نتمكن من توضيح حقيقة العلاقة التي كانت بين العثمانيين والسكان والتي مكنتهم من الاستمرار أكثر من ثلاث قرون. خاصة وأن الكثير سواء من العامة أو المؤرخين تأثروا بالكتابات الفرنسية التي تعمدت إبراز العثمانيين على أنهم مستبدين لا تربطهم

بالسكان غير دفع الضريبة عن طريق القوة العسكرية (المحلات وقبائل المخزن)

وسنحاول توضيح ذلك من خلال توضيح البنية الاجتماعية والعلاقة بينها وبين السكان..

1- البنية الاجتماعية:

أولا - البنية الاجتماعية للمدينة

لقد اتخذ التنظيم الاجتماعي شكلا هرميا تحتل قمته الطائفة التركية، أما المجموعة السكانية التي تحتل المرتبة الثانية في السلم الاجتماعي، فهي جماعة الكراغلة، ثم طائفة الإنكشارية أو الإنكشارية، ولا تستكمل صورة البناء الاجتماعي لسكان الايالة إلا بالتعرض إلى أربعة طبقات: طبقة الحضر، طبقة البرانية، طبقة الدخلاء، وطبقة الجاليات ثم تأتي طبقة اليهود في نهاية السلم نهاية السلم الاجتماعي¹.

ولقد كان لسجلات المعاملات والمبادلات، وعقود الزواج والطلاق، ووثائق الولادات والوفيات الخاصة بالفترة العثمانية في الجزائر، أهمية بالغة في إبراز أهم عناصر البناء الاجتماعي، والقوى الاجتماعية الفاعلة بالمدينة وتسجيل حضورها ومشاركتها في الحياة اليومية.

1- الطائفة التركية: تميزت هذه الطائفة بانعزالها عن السكان، وكان الدافع إلى هذه العزلة على ما يبدو هو رغبة الجماعة التركية في إبقاء هيمنتها على المناصب الحكومية، وصيانة تقاليدها الخاصة في نظم العيش والسلوك، والأتراك المقيمين بلايالة كلهم تقريبا من الجنود حسب تعبير وليام شالر حيث يقول أن "فالتري فخور بعمله العسكري متمسك بلغته الأصلية لا يميل إلى استعمار الأرض، ويقنع بالعيش من مرتبه الإداري، أو من

1 - ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي في الجزائر في أواخر العهد العثماني (1792-1830)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1987 ص. 44.

مدخول دكانه الخاص أو بستانه الواقع بالفحوص المجاورة للمدينة التي يقطنها¹ « كما أنهم يتصفون بالأدب واللياقة الإنسانية في معاملاتهم اليومية، ولكنهم حين يجدون أنفسهم في الحياة السياسية يكتشفون في أنفسهم وحشية نادرة². »

كما تمتع الأتراك بمختلف الامتيازات من خلال وظائفهم، وظفروا بفرص المصاهرة والزواج في البلد، وهذا الاختلاط في العرق نجم عنه تحسن ملحوظ في هذا الجنس، وذلك فيما يتعلق بالخصائص الجسمية والأخلاقية معا.³

ومما تجدر الإشارة إليه أن أحط الأتراك قدرا وأوضعهم شأنًا يرفض باحتقار أية فكرة للمساواة بينه وبين الأهالي، والنظرية التي تعلمها الأتراك جيلا عن جيل والقائلة بأن التركي ولد ليحكم ويتولى القيادة والأهلي ليخضع.⁴

ونظرا لهذه الأوضاع الخاصة التي عاشتها الأقلية التركية، وحتى تحافظ على وضعها الاجتماعي أصبحت علاقاتها مع بقية السكان حسب الاستناد سعيدوني تتصف بالروح العدائية، والنفور المتبادل⁵، وقد نتج عن

1 - المرجع السابق، ص. 42.

2 - وليام شالر: مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982، ص. 54.

3 - المصدر نفسه، ص. 56.

4 - وليام شالر، المصدر نفسه، ص. 45.

5 - سعيدوني، المالي في الجزائر: في الفترة العثمانية 1800-1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1970، ص. 42.

هذه العلاقة السيئة إبقاء الأهالي بعيدين عن أي مساهمة جدية في أمور الدولة والحيلولة دون إدماج الأتراك بالأوساط المحلية¹.

مع ذلك فهناك بعض المصاهرات التي تمت بين الأهالي والأتراك، حيث أفادت عقود المعاملات والمبادلات في التعرف على أهم العائلات ذات النسب التركي، وقد تم الرجوع إلى هذه العقود من قبل بعض الباحثين لرصد حضور ومشاركة هذه الطائفة في المجتمع، وما يمكن التنويه به أن العائلات التركية لم تكن ذات الصدى في العقود، فحضورها كان بشكل عادي ومشاركة العنصر التركي في هذه العقود كانت محدثمة، وهذا ما أكد أن الأتراك كان أغلبهم يشتغل بالجيش² وأشار بعضهم إلى أن حضور الطائفة التركية كان باهتا، إذا ما انطلقنا من سجلات الزواج لأن نسبتهم قليلة، ولكن تبدو مكانتهم أوضح من خلال وثائق الأوقاف وعقود الملكية التي تورد أسماء الملاك أو الموظفين القائمين على شؤون البايك³.

وقد عبر ابن العنثري عن أسباب نقص التعامل في الأوساط التركية بقوله: "إنه في عهد مصطفى الوزناجي، صار الأتراك يأخذون بالجور ونبذوا الحقوق، وأنه منذ أن مات صالح باي تبدلت أحكام الترك وانقلبت حقائقهم، وبدا النقص في ملكهم"، ويقول في موضع آخر: "إن وضعهم تغير في عهد عثمان باي الذي كان يكره بطبعه الأتراك"⁴، كما لوحظ حضور الحضر

1 - المرجع السابق، ص. 43

2 - صرهودة يوسف: معاملات ومبادلات إقتصادية في قسنطينة أواخر العهد العثماني، ماجستير في تاريخ الجزائر الحديث، جامعة قسنطينة، 2004-2005، ص. 134.

3 - فاطمة الرهراء قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع: النصف الأول من القرن الثالث عشر للهجرة، دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة تونس 1998، ص. 37-38، ص. 205.

4 - محمد صالح العنثري: فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانهم، تح. يحيى بوعزيز، دارهومة، الجزائر، 2005، ص. 27-28.

في المعاملات والمبادلات بنسبة كبيرة، إذا ما قورن ذلك بحضور العنصر التركي، حيث أن هذا الأخير كان حاضرا بنسبة ضئيلة، ولعل ذلك راجع إلى الضعف الكمي للعنصر التركي المهتم بالأمور السياسية أكثر من الاقتصادية، ويرجع كذلك للقدر المالية التي توارثها الحضر من أصولهم.¹

ورغم أن الأتراك حظوا بامتيازات كبيرة ويظهر ذلك من خلال ثرواتهم ومع ذلك فهم معرضون دوما للخطر والفقر، ويبدو ذلك من خلال تعبير القنصل الأمريكي شالر: "التركي يعيش محفوفًا بالخطر طوال حياته عكس الجزائري الذي كانت ثروته مضمونة" ذلك بسبب القرب من رجال السلطة، كما أن أملاكه كانت مرهونة بمنصبه السياسي، فإذا فقدته فقد معه ثروته، بالإضافة إلى ذلك فإن ثروة التركي تتحول بفعل المصاهرات إلى العائلات الحضرية الكبيرة من الأهالي² كما ذكر شالر، وهذا ما حدث لأموال صالح باي بعد مقتله، حيث استولى أصحابه من أسرة ابن جلول على جزء كبير منها.³

كما أنه أهم ما يميز الترك كونهم متمسكون بأصولهم حريصين على ذكر الله وأفضاله وكانت البسمة دوما في أفواههم وحتى من خلال أفكارهم وأقوالهم وتصرفاتهم وحتى في تأدية أركان وفرائض العقيدة الإسلامية.⁴

2- طائفة الكراغلة: تكونت هذه الطائفة نتيجة المصاهرة بين الجند الإنكشاري⁵ وبعض الأسر الجزائرية، ويعتبر الكرغلي كتركي ناقص مثل

1 - قشي، المرجع السابق أص 207.

2- وليام شالر- مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، ص. 60.

3 - يوسف، المرجع السابق، ص. 136

4Diego De Haedo: Topographie et Histoire général D'Alger (La vie à Alger au 16eme Siecle), 2eme édition, Edition (G.A.L), Alger, 2004,p86.

5 -- سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 43

الحر الثاني عند العرب¹، ينحدر الكراغلة من أصل تركي ولا يتمتعون بحقوق أكثر مما يتمتع به الأهالي فيما يتعلق بالمناصب في الدولة، حيث يتمتعون بامتيازات محدودة لكنهم لا تربطهم أية علاقة بالأتراك وقد رفضهم الجنس التركي رفضاً قاطعاً واعتبرهم من جنس السكان الجزائريين، ورغم اشتراك الكراغلة مع الأتراك في الأصل إلا أنهم أبعدوا عن المهام الكبرى خوفاً من سيطرتهم على شؤون البلاد لا سيما أن الكراغلة بحكم قربتهم من الأهالي وارتباطهم بالبلاد كانوا قادرين على تكوين حلف وطني يهدد امتيازات الطائفة التركية، ولم يستطع الأتراك الحد من شوكة الكراغلة، إلا بعد أن سمح لهم الداى شعبان آغا (1661-1665م) بحق الانتساب للأوجاق وكان لنتيجة سياسة الترضية التي انتهجها الداى شعبان آغا ارتقاء بعض الكراغلة إلى مناصب سياسية نذكر من ذلك تولى أحد الكراغلة يدعى أحمد حكم بايلك الشرق (1826-1837م)²، ومن حيث العدد كانت العائلات الكراغلية الانتساب قليلة وضعيفة الكثافة مقارنة مع السكان الأصليين³.

3 - طائفة الإنجشاريين أو الانكشاريين: الإنجشاريين مشتق من "الإنجشارية" أو "الإنكشارية"، وقد اختلف في تعريب تسمية هذا الجهاز العسكري العثماني الذي نقل إلى كل الولايات التي رضخت للسلطنة العثمانية، لشهرة عناصره بالتفوق في المعارك والانضباط، وقد تركز الاختلاف حول نطق أو نسخ بعض الحروف، مثل الجيم والكاف في هذا الحال، فكتبت الإنكشارية والإنجشارية.

1 - عبد الحميد بن أبي زيان بن آشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، المطبعة الشعبية للجيش، الجزائر، د. ت، ص. 139.

2 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 43.

3 - قشي، المرجع السابق، ص. 207.

فالإنجشاير هو من ينتمي إلى سلك الأوجاق¹ من الجيش البري للإيالة، يتشكل من فرق تابعة للدائي، توجد عناصر منها في البايك كحامية للمدن تحت تصرف الباي، وتمثل عين السلطة المركزية على ممثلها المحلي ويدها الضاربة².

وما يلفت النظر هو أن هؤلاء الجنود كانوا ممن يتعاطون الحرف اليدوية قبل انخراطهم في سلك الإنجشارية، جلهم أميون إلا قليل منهم، ولما كانوا يرتقون إلى الرتب العسكرية العليا كانوا

يفتخرون بنسبهم وبتركيبتهم، ويعتبرون أنفسهم من جنس أشرف من الأهالي، وإذا تزوج أحدهم بعربية سمي ولده كرغليا أي "ابن الأجنبية"، هؤلاء هم الذين يكونون من الجزائر اليوم العائلات التي تنسب إلى أصل تركي، والمتواجدة في الجزائر العاصمة والبليدة والمدينة وشرشال وقسنطينة وتلمسان ووهران ومعسكر ومستغانم، وهناك عائلات شائعة تحمل دما تركيا نذكر من بينها: إنجشاري اسطنبولي، قلايحي، دواجي، دمرجي، طبيجي، قارة، آغا، باش تارزي، زميرلي، كراكجي... إلخ³.

أما في سجلات المعاملات والمبادلات التي تم الإطلاع عليها من قبل الأستاذة يوسف، تم تسجيل حضور قوي لطائفة الإنجشاريين في كل أنواع المبادلات والمعاملات⁴.

كما تدل وثائق البيع والشراء على مدى اهتمام أفراد الجيش بشراء العقارات والتي ترمز لميلهم للإستقرار خاصة الدور التي كانت تشكل أغلب ما

1 - الوجل هو مجمع النار " الموقد " الذي يلتف حوله مجموعة من الجنود بغرض الطهي وقضاء شؤونهم المعاشية المختلفة، وهو رمز للحمية والأخوة.

2 -- قشي، المرجع السابق، ص. 204.

3 - بن آشنهو، المرجع السابق، ص. 139.

4 -- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

يقتني الإنجشارية في أغلب من 20 عقدا بالإضافة إلى عقدين خاصين بشراء جزء من الأراضي، كما تثبت العقود اهتمامهم بموقع الدور التي يشترونها إلى جانب ذلك اهتمامهم بملكية الخيول والبغال، بالإضافة إل المنازل والأراضي، والجدول التالي يبين بعض المشاركات الإنجشارية ¹.

ومع أنهم كانوا يقضون جل أوقاتهم في الخدمة العسكرية فقد كان لهم ميل للحياة المدنية والرغبة في بناء الأسر كذلك رغم أنهم اعتبروا أبنائهم اقل منهم مرتبة كما سبق وأشرنا، فقد أسسوا اسرا أساسها الزواج والبنون والرخاء والثروة لتأمين بقائهم، لذلك حرصوا على احترام القوانين المدنية مع مختلف الشرائح الاجتماعية خاصة الأعيان والأشراف، وحسب حمدان خوجة فإن الأتراك نادرا ما كانوا يفترون سرقة أو قتلا عمديا، لأن بقاءهم بالإيالة كان مقترنا بحسن سلوكهم.²، وهذا ما جعلهم لا يجدون صعوبة في الاقتران بشتى الشرائح الاجتماعية الجزائرية ولم يكن لهم مشكل في طلب الزواج من البكر والثيب من بنات الحرفيين والمدنيين على السواء.

وكان تقدمهم للزواج مبني بداية على احترام التقاليد الأسرية للمجتمع وأركان الزواج والطلاق حسب فونتور دو بالرادي³، وكان طلب الزواج يمهد له بتسريح قانوني من الأغا الذي يوكل كاهية العسكر بصياغة وثيقة يستظهرها اليولداش أمام القاضي لتسهيل عقد نكاحه وتسجيله في سجلات العدول وتخضع صفة القبول والادن بالزواج لسيرته وأقدميته ودخله مع إبلاغه بنزع اسمه من قائمة الجند الذين يستفيدون من مادة الخبز والمواد الغذائية الأخرى، وقد أشار إلى ذلك حمدان خوجة بالقول بأنهم شديدي الحرص على احترام البلاد ليحببوا أنفسهم لسكان الإيالة حتى

1 - المرجع نفسه، ص. 133

2 - حمدان خوجة، المرأة، ص. 119

3 - venture de paradis, Tunis et Alger au 18 eme cicle ed magnan Alger Gordon 1898,p175.

يسهل عليهم اختيار الأزواج من الأسر المحافظة في المدن الحضرية والقبائل ذات السمعة الإدارية والعسكرية¹.

واهم ما يميز عقود الزواج أن يذكر فيها صيغة العسكري دون توضيح رتبته ولقب البنت ووليها المتمسك ببيئته الصحراوية رغم مكوئه بالمدينة، مثل عقد النكاح الذي بين أيدينا والذي أرخ سنة 1798م وجاء فيه: "تزوج مسعود بن خليفة النجار من مطلقة الأولى مباركة بنت بالقاسم العسكري وأصدقها ثلاثين ريالاً ملحقة بعشرة ريالات والباقي بعد عام زواجها"²

وقد أشار وليام سبنسر أنهم تميزوا بالشجاعة والإقدام³، ومن الأمور التي لا يمكن تجاهلها من موضوع الانكشاري هو أن العقود تثبت ممارسة أفراد الجيش الأعمال التجارية دون التخلي عن أعمالهم العسكرية⁴.

4 - طائفة الحضر البلدية: ما هي العائلة الحضرية في المدينة؟

ما هي مميزاتها؟ وكيف التعرف عليها؟

لقد اهتم الباحثون بعد ابن خلدون بالبدو والحضر وراح كل واحد يحدد المواصفات الكفيلة للتمييز بين سكان المجالين وشغلت القضية اهتمام الباحثين في كل مكان أما في الساحة المغاربية فمن السهل مجارات جاك بيرك (J.Berque)* والقول أن العائلة الحضرية أو البلدية هي التي تجمع بين

1 - حمدان، المرأة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص119.

2 - يوسف، المرجع السابق، ص. 134

3- وليام سبنسر، الجزائر عهد رياس البحر تعريب وتعليق عبد القادر بايدي، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1980، ص176.

4 -- المرجع نفسه، ص. 134..

* - J.Berque, *Magreb Histoire et Société*, Alger, Duculot. SNED, 1974.

أبنائها الحرفي والتاجر وصاحب العلم¹، إلا أن هذه النشاطات الثلاث لم تتوفر مجتمعة من خلال عقود الزواج، ولا تجتمع الحرف الإنتاجية وحرفة العلم في عائلة واحدة².

وقد يتم الأخذ بالرأي السائد في تونس والقائل أن البلدي هو من يمتلك دار داخل الأسوار ومكانا مخصصا للعائلة في مقبرة المدينة*، وقطعة أرض في الفحص إن أمكن، وقد أثبتت الدراسات أن جل الأراضي المحيطة بالمدينة من جنانين وأراضي زراعية في مساحات أوسع هي ملك لأهل المدينة، بل لأعيانها، لكن هذه المقاييس ستفرز لنا الأعيان والأثرياء فقط وهل تبقى صفة الحضري حكرا على أصحاب المال الذين امتلكوا دارا وتجارة أو تقلدوا مناصب في التعليم أو القضاء وخلدتهم السجلات؟ ولعل المدنية والحضارة هي انتماء وشعور بالانتماء تظهر في السلوك والمواقف العامة مثلما تطفوا في عادات الأكل والملبس وغيرها من المعاملات اليومية ومهمة الباحثين إيجاد العناصر الفاصلة بين من شيدوا أسس المدينة³.

تميز سكان الحضر بوضعهم الاقتصادي المتميز ويظهر ذلك من خلال المعاملات والمبادلات⁴ التي كانوا يقومون بها، فهم أصحاب المهن والصناعات الموجودة في المدينة، كما يمثلون كبار التجار ولعل قوتهم الاقتصادية هي التي جعلت منهم عنصرا فعالا في الإدارة التركية بالإضافة لانتزاعهم الوظائف الدينية كالإفتاء والقضاء والتي كانت محصورة في العائلات الحضرية الكبيرة⁵.

1 - قشبي، المرجع السابق، ص. 208.

2 - المرجع نفسه، ص. 209.

* - لعائلة ابن باديس مقبرة مجاورة لمقبرة المدينة وراء كدية عاتي

3 - قشبي، المرجع السابق، ص. 209.

4 - يوسف، المرجع السابق، ص. 129.

5 - المرجع نفسه، ص. 129.

فمدينة قسنطينة على سبيل المثال كانت طوال الحكم التركي تميزت بظهور طبقة من الحضر أو البلدية كان لها تأثير مباشر على الأوضاع الداخلية بالمدينة. ولهذا لم يجد الأتراك بدا من منحها كثير من الامتيازات وتخصيص اغلب المناصب الشرفية والوظائف الإدارية والثقافية والتجارية لها مثل: ابن الفكون، عبد المؤمن، وابن باديس، وابن جلول، وابن عبد الجليل¹.

وما يميز أغلب الأسر الحضرية في الجزائر أن أغلبية الحضر قد مارسوا تجارة العقارات وحب امتلاكها. ولعل سبب ذلك يعود إلى الضعف الكمي في العنصر التركي كما ذكرنا سالفا والمهتم بالأمر السياسي، كما يرجع للقدرة المالية التي توارثها الحضر من أصولهم، لأن الحضر عملوا من أجل حماية قوتهم المالية، على التقرب من البايات واختلاف المناصب القريبة منهم ومن خلال كل ذلك يبدو أن تفاعل القوى الاجتماعية بين ذوي الأصول التركية التي تمثل السياسة الحاكمة في المدينة والقوى الاجتماعية التي يأتي على رأسها الحضر قد أعطى نتيجة تتمثل في اختفاء نوع من التوازن الإقتصادي وذلك لإهتمام كل واحد بمجاله فقد عرف عن الحضر اهتمامهم بالصناعات والحرف إلى جانب اهتمامهم بالأراضي².

5 - طائفة البرانية: يقصد بطائفة البرانية الطائفة التي ينتسب أفرادها إلى مواطنهم الأصلية التي قدموا منها قبل ان يستقروا بالمدينة³، ويبدو أن أفرادها هاجروا من مواطنهم الأصلية التي التصقت بأسمائهم للبحث عن العمل بعد أن ضاعت منهم أراضيهم أو تركوها جراء الحروب والثورات الشعبية التي عرفها الإقليم الشرقي في بداية القرن 19 م. وقد

1 - يوسف، المرجع السابق، ص. 129.

2 المرجع نفسه، ص. 131-132.

3 سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 45.

اختصت هذه المجموعة بأعمال معينة تقوم بها فكانت تمارس مهن متواضعة فمثلا نجد اهتمام المليون ببيع اللحوم¹ والأغواطيون اشتهروا بالتنظيف والبسكرة بحمل الأثقال والحراسة، والقبائل بأعمال البناء والزنوج بخدمة المنازل...الخ²، كما يظهر أن الأب يورث المهنة أو الحرفة لأبنائه.

6- طائفة الدخلاء: طبقة الدخلاء متميزة عن مجموع السكان لأسباب دينية وحضرية، فهي لهذه الأسباب تعتبر دخيلة على مجتمع المدينة، وإن كانت أحسن حالا من طبقة البرانية من حيث الأوضاع الاقتصادية ومستوى المعيشة.

وتضم طبقة الدخلاء جماعات الأسرى المسيحيين المستخدمين في الحانات أو السجون أو مسخرين للخدمة في قصر الداوي أو رعاية بعض البساتين³.

7- طائفة الجاليات: لقد كشفت وثائق المعاملات والمبادلات على تواجد مجموعة جاليات قد قدمت من خارج الإيالة، كالفادمين من المدن التونسية كالصفاقصي، الحفصي، كما كان لسياسة البايات المشجعة على ممارسة الأعمال التجارية مع تونس أثرها في ذلك التواجد، فالبايات لم يفرضوا أي قيد على التجارة البرية مع أيالة تونس أو ليبيا، فكانت تونس اقرب المراكز التجارية الداخلية، هذا إلى جانب الجالية المغربية والتي كانت حاضرة وغالبا ما يأتي المغاربة للتجارة أو مع قوافل الحجيج⁴.

1- يوسف، المرجع السابق، ص. 136.

2 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 45.

3 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع نفسه، ص. 46.

4 - يوسف، المرجع السابق، ص. 138.

أما الجالية الأندلسية فقد كانت تشكل عنصرا بشريا له تأثيره في مختلف مجالات الحياة في الإقليم الشرقي. ومع ان الجالية الأندلسية كانت متجانسة مع بقية أفراد المجتمع الجزائري من حيث المعتقد واللغة والانتماء، إلا أنها كانت تتميز عن غيرها من طوائف المجتمع بخصائص ومميزات نلخصها في النقاط الآتية:

1 - ظل أفراد الطائفة الأندلسية بالجزائر يعتبرون أنفسهم في دار هجرة مؤقتة يترقبون الفرص ويتحينون الظروف للعودة إلى مواطنهم الأصلية بالأندلس واسترجاع ما فقدوه من ملك الآباء وتراث الأجداد ويفسر هذا الإحساس اعتزازهم بأصولهم التي رؤوا فيها نوعا من النبل والشرف مما جعلهم لا يميلون إلى الاختلاط مع غيرهم من السكان وهذا ما جعلهم¹ يحجمون عن الزواج خارج جماعتهم فالمرأة الأندلسية نادرا ما تتزوج من غير الأندلسي إلا إن اضطررتها الحاجة والفقر إلى ذلك.

2 - كان أعضاء الجالية الأندلسية أكثر ثقافة وتطور ونشاط من باقي السكان الآخرين كما اتصف أفراد الجالية الأندلسية برقة الذوق في المأكّل والملبس والمتاع، بحيث أصبحوا يتميزون بأسلوب معيشتهم الراقى وطريقة تعاملهم المتحضرة، ونوعية الفن ونمط العمارة التي توارثوها عن أسلافهم في الأندلس.

3 - ركزت الجالية الأندلسية نشاطها على احتكار بعض الصناعات والمهن وممارسة التجارة، وكان همهم الرئيسي في ذلك ليس السعي لاكتساب النفوذ السياسي والوصول إلى المناصب العليا للدولة وإنما الرغبة في تنمية ثرواتهم واستغلال أملاكهم واستثمار مزارعهم وبذلك أصبح الأندلسيون يؤلفون طبقة ميسورة الحال مع بقية إخوانهم من سكان الحواضر. مع

1 - سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر - العهد العثماني، ج1، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1984، ص. 143.

الملاحظة أن جماعة الأندلسيين كانت تضم العديد من الجماعات المهنية والحرفية المتفاوتة الغنى المختلفة الاهتمامات فمنهم الأغنياء المترفون، ومنهم الفلاحون، ومنهم الصناع المهرة، ومنهم الفقهاء والعلماء...¹.

8- طائفة اليهود: رغم الاحتقار الذي كان يكنه الأهالي لليهود، فإن أغلب هؤلاء قد تحصلوا على ثروات ضخمة نتيجة ممارسة السمسة والمراباة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة أو تافهة. واليهودي بعمله هذا كان أشبه شيء بالبنك المتنقل فهو يعرض خدماته ويقدم قروض بفوائد مرتفعة، وإن اضطرته الظروف يذهب إلى تخوم الصحراء ليبادل مع بدوها²

وقد قام الأهالي نظرا لذلك بعدة انتفاضات ضد اليهود وطائفتهم أهمها ثورات: 1801 1804، 1805، 1815، أدت إلى هجرة العديد من العائلات اليهودية نهائيا من مدينة الجزائر، إذ هاجرت ألف عائلة يهودية إلى تونس، و200 عائلة أخرى إلى ليفورن بايطاليا في 1805/07/10.

وهذه الانتفاضات مع أنها تبين الجانب السلبي من حياة الجالية اليهودية بالجزائر إلا أنها في نفس الوقت تعبر بصدق عن بقاء هذه الجالية دخيلة عن المجتمع الجزائري المسلم³، إذ لا يربطها ببقية السكان سوى مصالحها المادية التي كانت تحصل عليها من الأعمال التجارية والصفقات الاقتصادية المربحة⁴.

كما أن وثائق البيع والشراء تثبت أن اليهود كانت لهم حرية اقتصادية داخل المدينة في عهد صالح باي أكثر من أي باي بعده، فبعض

1 - سعيدوني، دراسات وأبحاث، ص. 144.

2 - المرجع نفسه، ص. 134.

3 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 134.

4 المرجع نفسه، ص. 48.

المشاركات والمعاملات والمبادلات كانت مسجلة في عهده، ويبدو أن لرحيل هذا الباي أثره عليهم كما كان على غيرهم، وفيما يلي جدول يبين مشاركات أهل الذمة في عقود المعاملات والمبادلات¹.

ومن العقود المسجلة باسم أهل الذمة واشتراكهم في المنازل، يبدو أنهم كانوا يفضلون السكن مع بعضهم ولا يحبون الغريب، لكن هذا يؤدي إلى تكديس عدة عائلات في بيت واحد، ويرجع بعض الباحثين سبب تكديس اليهود إلى التهرب من دفع الضرائب المفروضة عليهم لخزينة البايك، كذلك يفضلون أن لا تظهر عليهم مظاهر الثروة لكي لا تفرض عليهم ضرائب تتناسب معها، ونتيجة هذا التكديس اشتهرت الأحياء التي يقطنها اليهود في مدينة الجزائر وقسنطينة بالقذارة².

وتظهر العقود أن اليهود قد اشتغلوا بتجارة اللحوم، كما اشتهروا بمنح القروض لكنها لا تبدي أن اليهود يمنحونها بفوائد، ويمكن الجزم إن كانوا فعلا يزيدون الفوائد فوق المبالغ التي يمنحونها فالمحكمة الشرعية تسجل قيمة القرض دون ذكر أي فائدة مرفقة به. إلا أن بعض المؤرخين قد أشادوا بشهرتهم في الأعمال التجارية والسمسرة، والقيام بدور الوساطة في كل الأعمال التجارية خاصة بعد أن احتكروا الطريق الممتد بين الجزائر وقسنطينة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت لهم مهارات أخرى كمعرفتهم بقضايا العملة واشتغلوا كذلك في مهن أخرى كصيانة المجوهرات، والحلي، والخياطة، والحدادة، وكدلالين حيث يذكر البعض أن هذه الحرفة اشتغل بها اليهود لفترة طويلة من الوقت فاليهودي يقطع مسافات طويلة حاملا معه سلعة ولا يعود إلا بعد بيعها.

1 - يوسف، المرجع السابق، ص. 140.

2 - المرجع نفسه، ص. 141.

على الرغم من قلة العقود المسجلة في سجلات المحكمة إلا أنها تبقى إثباتا لتواجد اليهود في وثائق المعاملات والمبادلات المسجلة إلى جانب المسلمين سواء كان الطرفين يهوديين أو يهودي ومسلم، وربما تعود أسباب نقصها إلى الأوبئة والمجاعات والثورات التي أدت إلى تناقصهم، كما كان لانتفاضات السكان ضدهم الأثر على نقصهم كما ذكرنا سالفاً¹.

بعد أن تعرفنا عن البنية الاجتماعية في المدينة والعناصر الفاعلة فيها والقوى الاجتماعية المشكلة لها أصبح من الضروري أن نلقي نظرة على القوى الاجتماعية بالريف لاسيما أنهم كانوا يمثلون الغالبية الساحقة وأن الاقتصاد الجزائري اكتسب بفضل ممارستهم الفلاحة وتربية المواشي طابعا فلاحيا رعويا، بحيث أصبحت معه الحياة الحضرية رغم تأثيرها الملموس في بعض أوجه النشاط الاقتصادي والاجتماعي للبلاد هامشية منغلقة على نفسها داخل أسوار المدينة، لا يربطها بالأرياف وساكنيها سوى رابطة المصلحة المتبادلة فالريف كان يقايض منتجاته بالأدوات المصنوعة محليا أو المستوردة من أوروبا عن طريق المدن الساحلية².

ثانيا- أما عن البنية الاجتماعية في الأرياف فهي في الواقع لم يتغير تشكيلها عن ماكان قبل مجيء العثمانيين حيث كانت مقسمة إلى مجموعات عشائرية عرفت بالأعراش أو القبائل تخضع لشيخوخا أو أهل الرأي منها، وتتوزع كل قبيلة على عدة دواوير يضم مجموعات من العائلات قد يصل عددها في المتوسط العام إثني عشرة خيمة أو منزل. وهم من حيث نمط المعيشة وطريقة الحياة، فلاحون مستقرون يعيشون على خدمة الأرض بالمناطق الشمالية والجهات الجبلية، وفلاحون رعاة يمارسون الفلاحة الموسمية ويربون قطعان المواشي فقد جمعوا حياة الاستقرار في بعض

1 -- يوسف، المرجع نفسه، ص. 142.

2 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 48.

الفصول، و حياة التنقل في فصول أخرى بمناطق الهضاب وسفوح الكتل الجبلية بالإضافة إلى رعاة ينتقلون وراء قطعان المواشي بحثا عن نقاط المياه وطلباً للكأ في مناطق السهوب وجهات الصحراء¹.

وتشتمل البنية الاجتماعية بالريف والبادي على مجموعات القبائل والعشائر والجماعات التي تأثرت بالسياسة الجبائية، وخضعت للإجراءات المتعلقة بها أو تولت مهمة استخلاصها أو مراقبتها أو مساعدة رجال البايك على تحصيلها وهذه القوى الاجتماعية يمكن تصنيفها حسب علاقاتها بالإدارة المركزية إلى قبائل خاضعة وهي جماعات الرعية، وقبائل متعاونة وهي عشائر المخزن، وقبائل ممتنعة وهي التكوينات القبلية المتمركزة بالمناطق الجبلية والجهات النائية².

1 - جماعات الرعية الخاضعة لسلطة قيادة البايك: كانت جماعات الرعية(*) معرضة لصنوف الضغط والاستغلال³، وليس في استطاعتها شق عصي الطاعة أو عصيان أوامر رجال البايك، فهي مراقبة من طرف فرسان المخزن من زمول ودوائر مهددة بهجمات مباغطة من فرق المحلة في حالة تمرد لها، كما أنها كانت محرومة من وسائل الدفاع فقد منع عنها امتلاك البنادق واقتناء البارود وحياسة السيوف⁴.

1 - سعيدوني، المرجع السابق ص. 26.

2- فلة قشاعي، آخر العهد العثماني (1771-1837)، ماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، 1989-1990، ص. 128.

(*) - من أهم قبائل الرعية نذكر: التلاغمة، أولاد عبد النور، عامر الغرابية، مجانة، أولاد سي خليفة، أولاد يعقوبين أولاد عاجز، أولاد رهان، أولاد ملول. (أنظر قشي: ص. 129).

3 - سعيدوني، النظام المالي ...، المرجع السابق، ص. 49.

4 - ناصر الدين سعيدوني، بوعبدللي المهدي، الجزائر في التاريخ: العهد العثماني، ج 4، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1948، ص. 103-108.

وهذا الصنف من السكان يشكل مصدر ثروة البايك، فهو يتحمل كل المطالب ويقوم بكل التكاليف المالية وجماعات الرعية كانت ملزمة دائما بالمساهمة في عديد من أنواع الضرائب من عشور، وزكاة، وحكور، وغرامة، وخطية، ولزمة، ومعونة، وضيقة الدنوش، وغيرها¹.

هذا ما جعل أفراد هذه الجماعات من سكان الأرياف وهم الخماسين^(**)، موضوع استغلال وقهر فهم مسخرون لتلبية طلبات الشيوخ الذين يشرفون عليهم، والقياد الذين يتصرفون فيهم وفرسان المخزن الذين يراقبونهم، فقد كانوا ملزمين بتقديم ما ينتجونه من إنتاج فلاحي، وحيواني مثل: القمح والشعير، والزيتون، والزيت، والعسل، والزبدة، والشمع، والصوف، وقطعان الماعز، والغنم والأبقار، والخيول، والجمال.

ونظرا لهذه الخدمات المتنوعة والمساهمات العديدة التي فرضت على جماعات الرعية، فإنها أصبحت أساس القوى المنتجة بالريف في الإقليم الشرقي مثلا، وركيزة الجهاز الإداري بل أساس التنظيم الضريبي. حيث مارس موظفو البايك ومتولوا المشيخات الوراثية نفوذهم وسلطتهم² وقد عرفت أغلب قبائل الرعية هذه بالبرانية كونها لا تنتمي إلى غيرها من القبائل عن

1- فلة قشاعي، النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني (1771-1837)، ماجستير ص. 129.

(**) - نظام الخماسة: هو نظام يمكن الفلاح من العمل في الأرض لفائدة البايك مقابل حصوله على خمس الإنتاج. (أنظر: النظام المالي... ص. 92
2 سعيدوني، النظام المالي...، المرجع السابق، ص. 130.

طريق النسب، فهي تعيش معزولة عن باقي القبائل الأخرى تحت مراقبة مشددة من طرف عشائر المخزن وفرق المحلة¹.

يقول ابن خلدون في المقدمة: "إن أهل البدو مقتصرون على الضروري من الأقوات من الملابس والمساكن يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو من الشجر أو من الطين أو من الحجر".

يصنف ابن خلدون سكان الأرياف إلى ثلاثة أنواع:

- من كان منهم في الزراعة والقيام بالفلاحة، وتربية النحل كان المقام أولى به الظعن وهؤلاء سكان المدر<< ضواحي المدن والقرى والجبال.

- من كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الأغلب لارتياح المسارح والمياه لحيواناتهم فالتقلب في الأرض أصلح لهم >>.

- من كان معاشه في الإبل فهم أكثر ظعن وأبعد في الفقر مجالا >>²

وإذا ما طبق قول ابن خلدون هذا على الجزائر، يلاحظ أن التصنيف الأول يشمل قبائل الرعية التي تعتمد في معاشها على نشاطها اليومي وكذلك لسد حاجاتها الضرورية، ويتمثل هذا النشاط في: تربية الحيوانات، معالجة الجلود صنع السروج نسج الأغطية الصوفية... الخ، ورغم ذلك فقد ظلت جماعات الرعية تعيش ظروف صعبة جدا تتميز بالحرمان والبؤس والتعاسة³.

1 - سعيدوني، المرجع السابق، ص. 131.

2 - عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، ط9، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ص. 96-97.

3 - قشاعي، المرجع السابق، ص. 131.

2- قبائل المخزن المتعاونة مع البايك: تتألف قبائل المخزن من

فرسان الزمول والدواوير التي أعطيت لها امتيازات عديدة وصلاحيات خاصة بها دون غيرها من سكان الأرياف منذ استقرار البايات بقسنطينة وكذلك مقابل تقديم خدمات عسكرية لفائدة البايك المتمثلة في إقرار الأمن وإخماد التمردات والمشاركة في الحملات العسكرية "المحلات"، واستخلاص الضرائب من جماعات الرعية أو القبائل الممتنعة أو المستعصية عن القيادة والحكام الأتراك، وهذا ما جعل من قبائل المخزن مجموعات سكانية ذات طابع عسكري، وشريحة اجتماعية ربطت غالبية سكان الأرياف بسلطة البايك، ووسيلة ملائمة لمد نفوذ السلطة المركزية لإدارة البايك بالمناطق النائية والجهات البعيدة، ولعل أهم هذه الامتيازات التي حصلت عليها قبائل المخزن هو حصولها على إقطاعات تشتمل على مراعي واسعة لممارسة تربية الحيوانات، وأراضي زراعية شاسعة لزراعتها¹.

هذا بالإضافة إلى إعفائها من الضرائب الطارئة، والالتزامات المخزنية المختلفة، ما عدا العشور والزكاة الملزمة نظرا لكونها مطلبا شرعيا يستوجب دفعه لخزينة مال المسلمين².

ولقد ارتبطت امتيازات عشائر المخزن بالخدمات التي كانت تقدمها، ففي حالة عدم الوفاء بالمهام الموكلة لأي عشيرة منها، كان البايك يبادر بتجريدتها من حقوقها وامتيازاتها، بل قد يحولها إلى مرتبة جماعات الرعية³، فعشائر المخزن شريحة اجتماعية تشد الحاكم بالمحكوم، وتخدم مصالح

1 - المرجع نفسه، ص. 133.

2- المرجع نفسه، ص. 134.

3- قشاعي، المرجع نفسه، ص. 138.

الفئة الحاكمة من الأتراك على حساب غالبية سكان الأرياف من جماعات الرعية¹.

3 - قبائل ممتنعة عن سلطة البايليك: هذا النوع من القبائل يتمركز بالنواحي الجبلية والصحراوية، أو الجهات النائية مثل مناطق الجنوب والشمال القسنطيني، وجهات البابور والأوراس ونواحي الصحراء، ويشكل قوى اجتماعية بالوسط الريفي غالبا ما تتعامل معها سلطات البايليك عن طريق العائلات المتنفذة وشيوخ الزوايا والمرابطين الذين يكونون ما يعرف بجماعة الجواد^(*)، هذا وقد تميز هذا الصنف من سكان الأرياف بامتناعه عن دفع الضرائب^(**) أو التسليم بسلطة البايليك، وهذا ما أدى إلى العديد من حركات التمرد والعصيان².

وقد ساعد سكان هذه الجهات على الامتناع عن سلطة البايليك، صعوبة مواطنها وعزلتها الطبيعية وبعدها على مراكز الحاميات، ومواطن

1 - ناصر الدين سعيدوني: "وضعية عشائر المخزن والآثار التي تترتب عليها"، المجلة التاريخية المغربية، العدد 07 و 08، جانفي 1977، ص. 76.

(*) - جماعة الجواد: متمثلة في شيوخ الزوايا والمرابطين، تشكل هذه الجماعة حلقة وصل ووسيلة اتصال بين القبائل الممتنعة عن سلطة البايليك والحكم المركزي لبايليك قسنطينة، تستمد نفوذها من اصولها الشريفة، ومكانتها المميزة في أوساط القبائل ومن تأثيرها على أهل الرأي والمشورة من رجال هذه القبائل، وتلجأ لتدعيم نفوذها إلى السلطة الروحية والكفاءة الحربية، إذ عملت جماعة الجواد على مد نفوذ البايليك على أقسام شاسعة من الشرق الجزائري، وكانت سلطتها تغطي حوالي ثلثي البايليك. (أنظر: النظام المالي ...، ص. 49، وقشاعي: 141-154).

(**) - ضريبة الغرامة قيمتها 35 فرنك، ضريبة العشور 17 فرنك، ضريبة الحكور 16 فرنك... الخ. (أنظر قشاعي: ص. 84).

2 - قشاعي، المرجع السابق، ص. 141.

فرسان المخزن مثل: مناطق البابور، والصومام وشمال قسنطينة، الأوراس، ووادي ريغ، وسوف، وجبال الأوراس والنمامشة إلخ.

وقد اضطر البايك للحد من عداء هذه القبائل، إلى التعامل مباشرة مع بعض الشيوخ والمرابطين^(*) والعائلات المتفندة بها باعتبارهم بمثابة الوسيط بينه وبين هؤلاء السكان الممتنعين وقد مكنتهم هذه المكانة من الحد من عداوة السكان، والمحافظة في بعض الأحيان على نفوذ شكلي غير مباشر للبايك، وهذا ما دفع بعض المؤرخين إلى القول بأن نفوذ البايك في واقع الأمر لا يتعدى أجزاء محدودة من الشرق الجزائري، شأنه في ذلك شأن بقية البلاد الجزائرية التي قدرت مساحة المناطق الممتنعة فيها بما لا يقل عن 35.000.000 هكتار، وهي تشكل حوالي خمس أسداس (6/5) الجزائر الشمالية التي تتشكل منها البايكات الثلاثة: قسنطينة، الطيطري، ووهران، هذا ومن بين القبائل الممتنعة أو المستقلة عن الحكم التركي نذكر على سبيل المثال: قبائل فرجيوة، وزواغة التي رفضت دفع ضريبة الغرامة وقبائل القرقور، والبابور، ومجانة ..¹.

ولأن القبائل الممتنعة كثيرا ما كانت تعترض سبيل القوافل الحاملة للدنوش في طريقها من قسنطينة إلى الجزائر، كانت إدارة البايك تستعين بنفوذ ممثلي جماعة "الجواد" ومن أبرزهم شيوخ أولاد مقران بغرض توفير

(*) - اضطر يوسف باشا حاكم الجزائر إلى مراسلة المرابطين بالشرق الجزائري، وفي مقدمتهم المرابط محامد بن عيسى، ليساعده في إخمد الثورات التي عجزت عن وضع حد لها جيوش البايك. (أنظر قشاعي. ص. 165).

1 - قشاعي، المرجع نفسه، ص. 142.

الأمن والحماية للقوافل الحاملة للدنوش. كما تستعين بها إدارة البايلك في إخماد الثورات والاضطرابات التي تتسبب فيها القبائل الممتنعة¹.
ومما سبق يمكن تمييز ثلاث شرائح اجتماعية بأرياف البايلك الشرق متمثلة فيما يلي:

1 - شريحة اجتماعية خاضعة ومستغلة استغلال كاملا، وهي جماعات أو قبائل الرعية التي كانت ملزمة بمختلف المطالب المخزنية دون الحصول على امتيازات أو تسهيلات.

2 - شريحة اجتماعية متنفذة مؤلفة من العائلات الإقطاعية الكبرى، والتي عرفت "بالجواد"، ومن المرابطين ورجال الدين، وقبائل المخزن. وقد تمتعت هذه الشريحة الاجتماعية الريفية بصلاحيات واسعة وامتيازات متعددة على حساب غيرها من الشرائح الاجتماعية الأخرى فأعفيت من دفع بعض الضرائب ومكنت من حيازة الأراضي الخصبة والمراعي الملائمة وأصبح في إمكانها تسخير الفلاحين من جماعات الرعية المعدومين "الخماسون" في خدمة الأرض التي كانت تمتلكها في وقت حرص فيه البايلك على جعل امتيازاتها قارة وغير قابلة للتغيير، وذلك حتى يتمكن من استخدامها في التحكم وإخضاع سكان الأرياف الذين عبروا عن رفضهم لهذا الواقع المجحف بإعلان العصيان والقيام بثورات متكررة².

3 - أما الشريحة الاجتماعية الثالثة فقد كانت تتألف من القبائل الممتنعة أو المستقلة التي كانت تعيش اقتصادا معيشيا مغلقا بعيدة عن

1 - فلة القشاعي، المرجع السابق ، ص. 143.

2 - المرجع نفسه ص. 10.

التنظيمات الضرائبية ولا تتعامل مع البايك إلا من خلال شيوخها وبالتالي أدى واقع النظام الضريبي إلى ظهور علاقات اجتماعية¹، تعتمد على أقلية غنية وقوية أسقطت عنها المطالب وهي متحكمة في إستخلاص الضرائب، وأغلبية فقيرة وضعيفة خاضعة للضغط الجبائي، كما تميز النظام الضريبي بعدم التوزيع العادل بين سكان الحواضر والمدن والمجموعات السكانية الريفية، التي تحملت الضغط الجبائي والعبء الضريبي، إذ ألزمت بدفع أكبر نسبة من المطالب المخزنية، في وقت كانت فيه المدن لا تطالب إلا بتسديد ضرائب محددة وخفيفة مما أدى إلى اختلال التوازن في توزيع الضرائب بين عالم الأرياف وعالم المدن، وهذا ما زاد في تدهور مستوى معيشة سكان الأرياف الذين كانوا يعانون من الكوارث الطبيعية والأحوال الصحية المتدهورة.

هذا وقد كان للحملات العسكرية الموجهة لجمع الضرائب "المحلات" تأثير كبير على نوعية علاقة القوى الاجتماعية بالبايك، فقد ساعدت على تأكيد مكانة المتعاونين مع البايك وأشعرت المجتمعات الريفية بقوة السلطة المركزية وقدرتها على تطبيق الإجراءات المعمول بها فيما يخص المغارم والجبائيات من المناطق الممتنعة والتي يصعب التحكم فيها².

كما ان أهم ما يميز هذه القبائل هو اعتزازها بنسبها القبلي رغم حركيتها المستمرة وعادة ما تكون النسبة إلى القبيلة أو العرش أو العائلة أو الحرفة كما تكون للموطن والمدينة، أما الانتساب بالبنوة "فلان بن فلان" في

1 -- قشاعي، المرجع السابق ، ص. 11.

2 - المرجع نفسه، ص. 12.

الصيغة العربية أو "أولاد فلان" حسب الدارج في ربوع المغرب، فهو معروف داخل المدينة وخارجها. وتستعمل الصيغتين دون تمييز، والواقع أنها، كلها متداولة بدرجات متفاوتة، ففي وثيقة تعدد الزوايا في مدينة قسنطينة مثلاً خلال القرن التاسع عشر وردت "زاوية الخرازين لابن الفكون" و "زاوية الخراشفين لأولاد بن جلول" و "زاوية ابن باديس" وكانت عبارة "أولاد" هنا تفيد الجمع ويبقى "ابن" للتعبير عن البنوة والانتماء¹.

إن جل الأسماء التي تنتهي إلى أصل قبلي مشتق من اسم مؤسس القبيلة أو أحد فروعها من عرش وفرقة، أو من نسب له من الأسلاف²، وينسب أهل قسنطينة أنفسهم إلى القبائل التي ينتمون إليها أو انحدروا منها مثل العمري إلى عامر والعمراني لابن عمران والدراجي لأولاد دراج والبديري لبني بدر والخطابي لابن خطاب والحناشي إلى الحنانشة والحركاتي إلى الحراكيتية والمسلمي لبني مسلم والعبد النوري لأولاد عبد النور وغيرها كثير³. ويبقى النسب هو الرباط الأكيد بالأصل. وتؤكد هذه الانتماءات على حركية القبائل وعدم استقرارها ومدى جاذبية المدن الكبرى لها⁴.

وقد أشار بعض الباحثين إلى مدى تمسك الفرد القبلي بنسبه رغم انتقاله المستمر وذلك من خلال توضيحها لمسار قبائل الشرق الجزائري في معانات مع الطبيعة والمحيط الاجتماعي طوال القرون الماضية وحاولت أن تبين كيف أن بعض الهشاشة قد مست قبائل الشرق، وهي في تحرك دائم

1 - فلة القشاعي، المرجع السابق، ص. 187.

2 قشي، قسنطينة المدينة والمجتمع، ص. 190

3 - قشي، المرجع نفسه ص. 191.

4- المرجع نفسه، ص. 192.

وهجرة وتفكك قبلي، ومع هذا تصمد المجموعة وتبقى مستمرة ولا ينسب الرجل المهاجر إلا لقبيلته الأصلية.

وتأتي بعدها النسبة إلى الموقع الجغرافي في شكلها العام والمعتمدة على الموقع من اتجاه الشمس فنقول "الشرقي" و"الغربي" ^(**) ولا وجود للشمال والجنوبي فالمتداول في هذا الشأن هو "القبلي" للجنوب أحيانا، وتم تداول الصحراوي نسبة إلى المناطق الجنوبية المتميزة ¹.

وإذا كان الحضور القبلي قويا فله ما يفسره إجمالا من جهة، في دور المدينة وقدرتها على الاستقطاب والاستيعاب ومن جهة أخرى فيما عرفته المناطق الريفية من تحولات سياسية وصعوبة المعيشة والمنافسة على الاستقرار.

كما أن أهم ما يميز الحياة الاجتماعية خلال العهد العثماني ظاهرة النزوح إلى المدن حيث تعتبر المنطقة الجبلية المورد البشري للمدن المجاورة منذ أمد بعيد، حيث تمد عواصم البايلاكات بالسواعد الفنية كلما احتاجت إلى ذلك. ويبدو أن المدن كانت في حاجة مستمرة لسد العجز وقد فسر الديمغرافيون عجز المدن في اليد العاملة والسكان عموما في القرون الماضية بقسوة ظروف المعيشة التي جعلت نسبة الولادات والوفيات في تقارب فكلما عم وباء أو انتشرت مجاعة حدث خلل في الميزان.

(**) - تستوقفنا بعض المصطلحات مثل لفظي "القبلي" و "الشرقي" المستعملة للتدليل على اتجاهين مختلفين، ويقصد بالجهة "القبليّة" الجنوب أحيانا، في حين يستعمل "البحري" للتعبير على الشمال بالنسبة للمدينة، ولا يرد مصطلح الجنوب، بل أكثر الإتجاهات تداولاً هي: شرقي، غربي، قبلي، جوفي عندما يكون الباب داخليا، أما الشمال فننادرا ما يرد، (أنظر قشّي: ص. 194).

1 - قشّي، المرجع نفسه، ص. 192.

وأهم نتيجة في هذا المضمار تتمثل في أن النزوح الريفي ليس بظاهرة معاصرة وإنما زاد سرعة فقط على غرار التحولات المعاصرة. ومما يجدر التنويه به هو التمثيل الضعيف للعائلات الحضرية المعروفة إذ يتم اللجوء إلى البحوث الديموغرافية حول المجتمعات الماضية لتفسير ظاهرة الحضور الريفي من المدينة ويبدو السبب بسيطا إذ أن العائلات الحضرية إن كانت عريقة فإن كثافتها قليلة¹، وتتضاءل مع الزمن إذا لم تطعم بعناصر خارجية كما أن المجاعات وخاصة الأوبئة أكثر فتكا وأسرع انتشارا بين أسوار المدينة منها بين السكنات المتناثرة في الريف والبادية².

أما عن مظاهر التأثير فنلمسها من خلال الحياة الاجتماعية والاحتكاك بين العثمانيين والجزائريين كالتعاون بين العلماء والموظفين وعامة الشعب ومن بين أهم الأحداث التي تمثل مدى مؤازرة الجزائريين وتعاونهم مع العثمانيين كان في جيش الباي محمد الكبير عام 1791موتعاونهم مع العثمانيين إذ رحبت مختلف أصناف جند الانكشارية بمختلف العلماء وشيوخ الزوايا كمتطوعين الى جانبهم من أمثال محمد بن عبد الله الجيلالي وقاضي معسكر الطاهر بن حواء؛ إضافة إلى بعض الحدادين والخشابين، فكانت تركيبة الجيش مزيجا بين العثمانيين والمتطوعين الذين لهم الفضل في نصرة الأسبان وفتح وهران تحت راية سيدي عبد الرحمان الطالبي وسيدي بومدين وسيدي محمد عودة .

1 - قشبي، المرجع نفسه ، ص. 195.

2 المرجع نفسه، ص. 196.

وقد عبر عن ذلك محمد بن ميمون الجزائري بقوله "ووصل الجيوش من المتطوعة الغازين المدويين إلى حقوقهم من الغنم المتقدم فتضاعف بذلك يقينهم وازداد على قتل العدو...وتلاحق وابل الأمم المحشودة من المجموعة المنصورة...تموج بهم موقف الجهاد"¹

ومن مظاهر التعايش الثقافي كذلك التعايش المذهبي حيث أنه على الرغم من أن الموظفين العثمانيين والجند الانكشارية حملو معهم عقائدهم وتقاليدهم من الطريقة البكداشة فإنهم سرعان ما اندمجوا مع سكان الجزائر سواء في المدن أو الأرياف فاقربوا من الزوايا وأصحاب البركات طالبين من أوليائهم النصرة والاستقرار بالايالة حتى أن بعضهم اتبع الطريقة الشاذلية والقادرية، كما ساهم الكثير منهم في بناء المساجد والمكتبات وأوقف بعضهم أوقافا للأعمال الخيرية².

ومن مظاهر التعاون م ذلك على سبيل المثال زاوية القاضي المالكي التي أسسها مصطفى آغا الصبايحية بمدينة الجزائر وهي مخصصة لإسكان علماء المذهب المالكي من ريعه الخاص من منطلق الإحسان للمجتمع وبعث التعايش بين المذهب الحنفي والمالكي واستمراره في نطاق الممارسات الاجتماعية³.

1 -محمد بن ميمون الجزائري ،تحفة التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم،الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981،،ص226

2 -ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي، ص ص 185-188.

3 -ابو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ،ص270

كذلك مبادرة الحاج مصطفى البولكباشي بإنشاء مدرسة لتعليم
القران الكريم بالقرب من محيط حضر باشا بمدينة الجزائر¹.
ومنه نستنتج أن إقامة المؤسسات التعليمية والثقافية هدف إلى
محاولة ربط الأجيال واستحضار الإخوة والتعاون بين فئات التركيبة السكانية
في اية الجزائر.

كما تعتبر المقامات والمزارات وأضرحة الأولياء الصالحين حلقة
اجتماعية موحدة لكل شرائح المجتمع². هذا إضافة لمواسم الحج التي تنظم
عبر رحلات القوافل البرية والتي يشرف عليها أسر ذات مكانة دينية
 واجتماعية بالمدن شرف شيوخها بإمارة ركب الحج كاسرة الفقون
بقسنطينة³

فرحلات الحج جعلت مختلف الفئات الاجتماعية تنصهر وتندمج
فيما بينها بفعل الأعمال اليومية التي عادة ما تزيل كل الحواجز الوظيفية
واللغوية وتزيد في التواصل والتعارف.

آخر ما يمكننا قوله أن الممارسات العسكرية للعثمانيين لم تحد من
توسيع روابطهم الاجتماعية الحضرية وذلك من خلال معاملتهم الاقتصادية
والاجتماعية فالعقود المسجلة في المحاكم الشرعية والحقائق المدونة في
سجلات بيت المال أطلعتها على مختلف معاملاتهم التي شملت المصاهرات
وعقود التمليك وتصنيف التركات كلها كانت سبلا لاندماجهم وتواصلهم مع

1 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 277.

2 - De Haedo Diego: *Topographie et Histoire général D'Alger*, p147.

3 - أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص 176.

مختلف الشرائح الاجتماعية ومهدت لاستقرارهم في المدن وتمازج عاداتهم
وعمرانهم وثقافتهم العثمانية بالمجتمع الجزائري....